البحث رقم
1

أصحاب الأخدود والتضحية

دروس وعبر

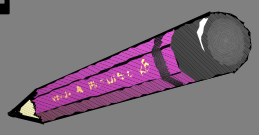

الدكتور

عامر خميس وادي الراوي

تدريسي

في كلية التربية القائم

قسم علوم القران

imer.kam72@gmail.com

ISSN:2071-6028

خلاصة البحث

الحمد لله رب العالمين الذي أنعم علينا بنعمة الإسلام، ودلنا على طريق الإيمان حتى تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، الذي أوضح طريق الدعوة للمخلصين، فقال لسيدنا علي ﷺ **(لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها)**.

ولا شك أن من أهم التضحيات وأعلاها منزلة التضحية بالنفس، ولعل صور التضحية بها كثيرة في كتاب الله، إلا أني انتقيت صورة من ارفع هذه الصور منزلة، وأعلاها قيمة، لرجل ليس بنبي ولا رسول، إلا انه قدم نفسه قربانا في سبيل الدعوة إلى الله عز وجل، لأتلمس من خلال هذه القصة الدروس والعبر والعظات التي تساعدنا في طريق الدعوة الطويل.

فحاولت في البداية أن أذكر القصة في كتاب الله تعالى معرجا على تفسيرها من كتب التفسير ذاكرا الآراء المتشابهة منها، ثم مررت على ما ورد من ذكر للقصة في الحديث الشريف منتقيا الصحيح والحسن منها فقط.

وبعد ذلك عرفت بالتضحية لغة واصطلاحا، ثم ذكرت الدروس والعبر المستفادة من القصة، وقسمتها على ست وقفات أساسية ليسهل على القارئ فهمها وهذه الوقفات تشمل نقاطا فرعية ذكرت في البداية اسمها ثم أصلته بما ورد في القصة ثم ذكرت العبر والدرس المستخلص منها ثم ختمت البحث بذكر أبرز ما توصلت إليه من نتائج ناصحا الباحثين ببعض القصص القرآني التي تحتاج منا إلى بحث ودراسة والله أسال أن ننتفع من هذا البحث شبابنا اليوم إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الكلمات المفتاحية : اصحاب ، أخدود ، تضحية

ABSTRACT

Praise be to ALLAH who bestowed us with grace of Islam, and guide us to the Path of faith and set us on the white path which is its night as its day no one deviates it only the perish, and prayers and peace upon whom ALLAH send him merciful to the worlds, who shows the advocacy path to the faithful people, and who told our leader Ali (may ALLAH pleased him) "If Allah guides one man because of you, it is better for you than the life in this world and whatever in and on it".

There is no doubt that one of the most important sacrifices and highest status is the self-sacrifice, there are many images of sacrifice in the Holy Quran, but I have selected the most noble image, and highest value, for a man not a prophet, but he presents himself as a scarify for the sake of the call to Allah Almighty, to seek through this story the lessons and the sermons that help us in the long journey of the call.

The researcher tried from the beginning to mention to the story in the Holy Quran interpret it from the interpretation books by mentioning the similarities perspectives, then passed on what was mentioned in Hadith selecting the good and authentic one only.

Then, the researcher defines the scarify idiomatically, and linguistically, then the researcher mentions the lessons which are learned from the story and divides them to six basic stances to make them easier for the reader to understand them, these stances include sub-points which was mentioned at first its name and its relationship with what mentioned in the story, then concludes the research by mentioning the most prominent findings, and recommends the researchers to conduct some Quran's stories which need to be studied, asking Allah that this research to be benefit for our youth.

Keywords:Owners, groove, sacrifice

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الذي انعم علينا بنعمة الإسلام، ودلنا على طريق الإيمان حتى تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، الذي أوضح طريق الدعوة للمخلصين، فقال لسيدنا علي ﷺ **(إن يهدي الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها)**.

فإن الإسلام دين شامل أعطى للدنيا حقها فلم يغفل غريزة من الغرائز التي وهبها الله للإنسان، وإنما أعطى لكل منها غذائها الشرعي الرصين.

فالدعوة إلى الله عز وجل عز ما بعده عز وشرف ما بعده شرف، لمن رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وهي شكر ووفاء، ورد حق لهذا الدين العظيم، وهي من اجل الطاعات، وأعظم القربات، وقد اصطفى الله عز وجل للقيام بها صفوة الخلق من الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وهي تحتاج من الجميع التفاني والإخلاص والجد والمثابرة لتبليغ هذا الدين والنهوض به سواء بالنفس والمال والجهد والفكر والقلم. ومن أسمى هذه التضحيات وأعلاها منزلة التضحية بالنفس، ولعل صور التضحية بها كثيرة في كتاب الله، إلا أنى انتقيت صورة من ارفع هذه الصور منزلة، وأعلاها قيمة، لرجل ليس بنبي ولا رسول، إلا انه قدم نفسه قربانا في سبيل الدعوة إلى الله عز وجل، لأتلمس من خلال هذه القصة الدروس والعبر والعظات التي تساعدنا في طريق الدعوة الطويل، فسميت البحث: (أصحاب الأخدود والتضحية دروس وعبر).

وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة

المبحث الأول: وسميته أصحاب الأخدود وقد قسمته إلى مطلبين:

المطلب الأول: أصحاب الأخدود في القران الكريم

المطلب الثاني: أصحاب الأخدود في السنة النبوية

المبحث الثاني وكان بعنوان أصحاب الأخدود والتضحية دروس وعبر

المطلب الأول: وعرفت فيه التضحية لغة واصطلاحا

المطلب الثاني: وقفت مع القصة دروسا وعبرا

وقد اعتمدت في هذا البحث على المصادر الأم فخرجت الأحاديث النبوية من كتبها وأشرت إلى الآيات الكريمة وأرقامها وسورها.

وقد واجهتني بعض الصعوبات منها صعوبة حصولي على مصادر لهذا البحث، إلا أن مكتبة الكلية وما حوته من مصادر لكتب ورقية والكترونية ساعدتني كثيرا في إتمام هذا البحث الذي أعملت فيه فكري وجهدي فأن أصبت فبتوفيق الله وإن كانت الأخرى فأسأل الله العفو والسماح.

المبحث الأول:
أصحاب الأخدود

المطلب الأول: أصحاب الأخدود في القرآن الكريم

ذكرت قصة أصحاب الأخدود مرة واحدة في القرآن الكريم، في سورة البروج في الآيات الآتية:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١﴾.

بين يدي السورة:

* (سورة البروج مكية بالاتفاق هذه السورة معدودة السابعة والعشرين في تعداد نزول السورة، وكانت بعد سورة «والشمس وضحاها» وقبل سورة «التين»، وسميت في المصاحف وكتب السنة وكتب التفسير «سورة البروج»، وآياتها اثنتان وعشرون آية)[١].

* هذه السورة القصيرة تعرض لحقائق العقيدة السلامية –كما يقول سيد قطب– (تعرض حقائق العقيدة، وقواعد التصور الإيماني... أمورا عظيمة، وتشجع حولها أضواء قوية بعيدة المدى، وراء المعاني والحقائق المباشرة التي تعبر عنها نصوصها، حتى لتكاد كل آية –وأحيانا كل كلمة في الآية– أن تفتح كوة على عالم مترامي الأطراف من الحقيقة)[٢].

---

(١) التحرير والتنوير: «المعروف بتفسير ابن عاشور»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م: ٢١١/٣٠، وينظر: تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، ط١، ١٩٤٦م: ٩٧٠/٣٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١١، ١٩٨٥م: ٣٨٧١/٦.

* (والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هي حادثة «أصحاب الأخدود»، وهي قصة التضحية في سبيل العقيدة والإيمان)[١].

* (ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات النجوم الهائلة، ومداراتها الضخمة، التي تدور فيها تلك الأفلاك، وباليوم العظيم المشهود وهو يوم القيامة، وبالرسل والخلائق على هلاك ودمار المجرمين الذين طرحوا المؤمنين في النار ليفتنوهم على دينهم)[٢] ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ٧﴾.

وهذه الأمور الأربعة العظيمة التي اقسم الله بها في أول السورة بداية جيدة للحديث عن قصة أصحاب الأخدود، فأن هذا الجو الخاص كان يمهد لان تعرض من خلاله أحداث القصة[٣].

* ثم تلاها الوعيد والإنذار أي إشارات إلى عذاب جهنم وعذاب الحريق الذي ينتظر الفجار والطغاة جزاء ما فعلوه بالمؤمنين من أفعال شنيعة[٤] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠﴾.

ثم أشار إلى ما ينتظر هؤلاء المؤمنين الصابرين من النعيم الذي فازوا به وهو نعيم الجنة؛ وذلك لأنهم اختاروا عقيدتهم على الحياة، وارتفعوا على فتنه النار والحريق[٥] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١﴾.

---

(١) صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م ٤٧٨/٣.

(٢) صفوة التفاسير: ٤٧٨/٣.

(٣) ينظر: مع قصص السابقين في القرآن، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط٥، ١٤٢٨هـ: ٧٥١.

(٤) ينظر: صفوة التفاسير: ٤٧٨/٣، في ظلال القرآن: ٣٨٧٢/٦.

(٥) ينظر: في ظلال القرآن ٣٨٧٢/٦.

* وبعد ذلك تحدث عن قدرة الله تعالى على الانتقام من أعدائه الذين فتنوا عباده وأولياءه، وهنا تلويح ببطش الله الشديد، الذين يبدئ ويعيد.. (وهي حقيقة تتصل اتصالا مباشرا بالحياة التي أزهقت في الحادث، وتلقى وراء الحادث إشاعات بعيدة)[١]، قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾.

* (وذكر بعد ذلك بعض صفات الله تعالى، وكل صفة منها تعني أمرا ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾، الغفور لتائبين من الإثم مهما عظم وبشع، والودود لعباده الذين يختارونه على كل شيء، والود هنا هو البلسم المريح لمثل تلك القروح!)[٢].

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.. (وهي صفات تصور وتبقى حقيقة الإرادة الطليقة والقدرة المطلقة وراء الأحداث ووراء الحياة والكون تفعل فعلها في الوجود)[٣].

* وختمت السورة بتذكير بعض المهلكين الأولين من كفار القرون السابقة فضرب مثل قوم فرعون وثمود وكيف كانت عافيه أمرهم بسبب بغيهم وطغيانهم وتكذيبهم للرسل فحصلت العبرة للمشركين في فتنتهم للمسلمين، وفي تكذيبهم الرسول ﷺ للتنويه بشأن القرآن الذي يكذبون به، القرآن مجيد تدل صفات مجده على انه منزل من عند الله وانه في لوح محفوظ عند الله، وهذا الختم الرائع يناسب موضوع السورة[٤].

---

(١) ينظر: المصدر السابق ٣٨٧٢/٦، وصفوة التفاسير: ٤٧٨/٣.

(٢) المصدر السابق: ٣٨٧٢/٦.

(٣) المصدر السابق: ٣٨٧٢/٦.

(٤) ينظر: صفوة التفاسير: ٤٧٨/٣، التحرير والتنوير: ٢١٢/٣٠، معارج التفكر ودقائق التدبر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م: ٣٥٠/٢.

هدف السورة:

جاءت هذه السورة لتسلية النبي ﷺ وأصحابه عن إيذاء الكفار له وكيفية تلك التسلية هي انه تعالى بين لهم عاقبة الأمم السابقة وجزاء الصابرين على الحق(١).

فلما (ذكر أنه تعالى أعلم بما يجمعون للرسول ﷺ وللمؤمنين من المكر، والخداع، وأذية من أسلم بأنواع من الأذى، كالضرب، والقتل، والصلب، والحرق بالشمس، وإحماء الصخر ووضع أجساد من يريدون أن يفتنوه عليه، ذكر أن هذه الشنشنة كانت فيمن تقدم من الأمم يعذبون بالنار، وأن أولئك الذين أعرضوا على النار كان لهم من الثبات في الإيمان ما منعهم أن يرجعوا عن دينهم أو يحرموا، وان أولئك الذين عذبوا عباد الله ملعونون، فكذلك الذين عذبوا المؤمنين من كفار قريش ملعونون، فهذه السورة عظة لقريش فتثبيت لمن يعذب)(٢).

فضل السورة:

هناك أحاديث مروية تدل على عناية الرسول ﷺ بهذه السورة ومنها(٣):

١- عن أبي هريرة: (أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء يعني ذات البروج والسماء والطارق)(٤).

٢- عن أبي هريرة: (أن رسول الله ﷺ أمر أن يقرأ بالسموات في العشاء)(١)، أي السماء ذات البروج والسماء والطارق فجمعها جمع سماء وهذا يدل على أن اسم السورتين: سورة السماء ذات البروج، سورة السماء والطارق(٢).

---

(١) ينظر: الفخر الرازي:، محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر (ت ٦٠٤هـ)، دار الفكر، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م: ١٠٦/١١. والتفسير الواضح، الحجازي، محمد محمود، دار الجيل الجديد، بيروت، ط١٠، ١٤١٣هـ: ٨٤٦/٣.

(٢) البحر المحيط: في التفسير، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٥م: ٤٤٢/١٠.

(٣) ينظر: معارج التفكر ودقائق التدبر: ٣٤٨/٢.

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت ٢٤١هـ)، تحقيق شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠١م: باب جزء الرابع عشر ٧٧/١٤ برقم (٨٣٣٢).

٣- عن جابر بن سمرة[٣] (أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر والسماء والطارق والسماء ذات البروج)[٤].

وبعد أن عرفنا عناية الرسول ﷺ بهذه السورة واختار تلاوتها في الصلاة، علينا التأسي بالرسول ﷺ في اختيار تلاوتها دون التزام دائم، في الصلاة العشاء الآخر، وفي صلاتي الظهر والعصر، لان التأسي بالرسول ﷺ عمل صالح[٥].

وهذه الأحاديث لا تدل على أن الرسول ﷺ كان يفعل ذلك دوما، بل يدل على انه كان يكرر اختيارها للتلاوة في الصلوات المذكورة، وقد جاء في مرويات أخرى ما يدل على انه كان يتلو غيرها في هذه الصلوات أو يوصي بتلاوة غيرها، وفي هذا دليل على عدم الالتزام دوما بتلاوتها في هذه الصلوات[٦].

---

(١) مسند الإمام احمد، باب مسند أبي هريرة ﷺ: ٧٨/١٤ برقم (٨٣٣٣).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢١١/٣٠، تفسير القرآن العظيم:، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٨م: ٤٢٥/٦.

(٣) جابر بن سمرة بن جندب بن حبيب بن رباب بن حجير بن سواءة بن عامر بن صعصعة أبو عبد الله السوائي حليف بني زهرة وأمه خالدة بنت أبي وقاص أخت سعد وعتبة ابني أبي وقاص، قال البخاري مات بعد المختار وصلى عليه عمرو بن حريث. ينظر: الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد، أحمد بن محمد بن الحسين بن الحسن، أبو نصر البخاري الكلاباذي (ت ٣٩٨هـ)، تحقيق عبد الله الليثي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ: ١٤٢/١.

(٤) مسند أبي داود الطيالسي، أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصري (ت ٢٠٤هـ)، تحقيق محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، ط١، ١٩٩٩م: باب جابر بن سمرة، ١٣١/٢، برقم (٨١١).

(٥) ينظر: معارج التفكر ودقائق التدبر: ٢/ ٣٤٨-٣٤٩.

(٦) المصدر السابق: ٣٤٩/٢.

التفسير:

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾﴾ أي لعن، قال ابن عباس: كل شيء في القرآن (قتل) فهو لعن، وهذا جواب القسم –في قول الفراء[١]– واللام فيه مضمرة، كقوله: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ثم قال ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[٢]: أي لقد افلح، وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي قتل أصحاب الأخدود والسماء ذات البروج، قاله أبو حاتم السجستاني[٣]، ابن الأنباري: وهذا غلط، لأنه لا يجوز لقائل أن يقول: والله قام زيد، على معنى قام زيد والله.

وقال المبرد[٤] والزجاج[١]: جواب قسم ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ وهو قول ابن مسعود وقتادة، وهذا قبيح لان الكلام قد طال بينهما، وقيل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا﴾،

---

(١) أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، أوسع الكوفيين علما. له كتب في العربية كثيرة جدا، وفي القرآن كتابه مشهور، وتوفي في طريق مكة سنة سبع ومائتين، ينظر: تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم، أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر التنوخي المعري (ت ٤٤٢هـ)، تحقيق الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م: ١٨٧/١-١٨٩.

(٢) سورة الشمس الآية ٩.

(٣) أبو حاتم السجستاني، الإمام العلامة، أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني، ثم البصري المقرئ، النحوي، اللغوي، صاحب التصانيف، عاش ثلاثا وثمانين سنة ومات في آخر سنة خمس وخمسين ومائتين. ينظر: سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٩٨٥م: ٧/١٠.

(٤) المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي المعروف بالمبرد – والثمالي منسوب إلى ثمالة بن مسلم بن كعب بن الحارث بن كعب – فكان شيخ أهل النحو والعربية، وقال أبو بكر بن السراج كان مولد المبرد سنة عشر ومائتين، ومات سنة خمس وثمانين ومائتين، ينظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين الأنباري (ت ٥٧٧هـ)، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الأردن، ط٣، ١٩٨٥م: ١٦٤/١-١٧٣.

وقيل: جواب القسم محذوف أي وسماء ذات البروج لتبعثن، وهذا اختيار ابن الأنباري، وهو اختيار صاحب (الكشاف): جواب القسم هو الذي يدل عليه قوله ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾، كأنه قيل: اقسم بهذه الأشياء أنهم ملعونون يعني كفار قريش كما لعن أصحاب الأخدود، وذلك أن السورة وردت في تثبيت المؤمنين وتصبيرهم على أذى أهل مكة وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان وإلحاق أنواع الأذى وصبرهم وثباتهم حتى يأنسوا بهم ويصبروا على ما كانوا يلقون من قومهم ويعلموا أن كفارهم عند الله بمنزلة أولئك المعذبين المحرفين بالنار ملعونون أحقاء بأن يقال فيهم قتلت قريش كما قيل ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾، وقتل دعاء عليهم كقوله ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾، وقرئ «قُتِّل» بالتشديد[٢]، والأخدود: الشق العظيم المستطيل في الأرض كالخندق، وجمعه أخاديد لمجاري الدموع، والمخدة، لان الخد يوضع عليها، ويقال: تخدد وجه الرجل: إذا صارت فيه أخاديد من جراح[٣]، قال طرفة[٤]:

وَوَجْهٌ كَأَنَّ الشَمسَ حَلَّت رِدائَها

---

(١) الزجاج أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري، الإمام، نحوي زمانه، أبو إسحاق إبراهيم ابن محمد بن السري الزجاج، البغدادي، مصنف كتاب (معاني القرآن)، وله تآليف جمة، مات سنة إحدى عشرة وثلاث مائة. ينظر: سير أعلام النبلاء: ١٤/٣٦٠.

(٢) الكشاف: عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود ابن عمر، الزمخشري الخوارزمي (ت ٥٣٨هـ)، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٦م ٤/٢٣٧، ينظر: تفسير النسفي: «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي(ت ٧١٠هـ)، تحقيق مجدي منصور، المكتبة التوفيقية، القاهرة: ٣/٤٢٠.

(٣) فتح القدير:، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٤م: ٥/٥١٤، ينظر: الكشاف: ٤/٢٣٧.

(٤) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد، البكري الوائلي، أبو عمرو شاعر، جاهلي، من الطبقة الأولى، ولد في بادية البحرين، وتنقل في بقاع نجد، (ت ٦٠ ق.هـ)، ينظر: الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م: ٣/٢٢٥.

عَلَيـــهِ نَقِـــيُّ اللَـــونِ لَمْ يَتَخَـــدَّدِ

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾: «النـار» بـدل اشـتمال(١) مـن الأخـدود(٢). «ذات»: (بمعنـى صاحبة، وهي كلمة يتوصل بها إلى الوصف بالأجناس)(٣).

(و«الوقود»: بفتح قراءة العامة، وهو الحطب وقرأ قتادة، وأبو رجاء، ونصر بن عاصم، «بضم الواو» على المصدر، أي ذات الاتقاد والالتهاب، وقيل: ذات الوقود بأبدان الناس، وقرأ أشهب العقيلي، وأبو السمال العدوي، وابن السميفع: «النار ذات» بالرفع فيهما، أي أحرقتهم النار ذات الوقود)(٤).

(وصف نار هذا الأخدود بأنها ذات الوقود، لتصوير مشهد المدد من الوقود، الذي جمعه أو يجلبه أصحاب الأخدود، ويجعلونه قريبا منه، فهم يمدونها بالوقود اللازم لها، كلما تقاصرت ألسنة لهبها، وفي هذا التصوير إبراز لشناعة عملهم، وفظاعته، وتنبيه على ما في قلوبهم من قسوة، وعلى ما في وجوههم من لؤم وغيظ، وكلاحة(٥) جهنمية، وفي تعريف الوقود بـ«ال» إشارة إلى كثرته، وتعاظم أكوام الحطب إلى جانب الأخدود، حتى كأن كل الحطب الذي يستطيعون جمعه قد جمعوه)(٦).

---

(١) بدل الاشتمال أن يكون الأول مشتملا على الثاني والثاني قائم به، اللباب في علل البناء والإعراب، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي محب الدين (ت ٦١٦هـ)، تحقيق عبد الإله النبهان، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٥م: ٤١٣/١.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت: ٢٥١/١٩؛ تفسير النسفي: ٤٥١/٣، الكشاف: ٢٣٨/٤، معارج التفكر ودقائق التدبر: ٣٦٨/٢.

(٣) معارج التفكر ودقائق التدبر: ٣٦٨/٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٢٥١/١٩- ٢٥٢، ينظر: فتح القدير: ٥١٤/٥، الكشاف: ٢٣٨/٢.

(٥) كلح الكاف واللام والحاء أصلٌ يدلُّ على عُبوس وشَتامةٍ في الوجه، معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ: ١٣٤/٥.

(٦) معارج التفكر ودقائق التدبر: ٣٦٨/٢-٣٦٩.

﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ﴾ (العامل في الظرف «قتل»، أي لعنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين على ما يدنو منها، ويقرب إليها، قال مقاتل: يعني عند النار قعود يعرضونهم على الكفر، وقال مجاهد: كانوا قعودا على الكراسي عند الأخدود)[١].

(أي: اذكر شناعة جريمة أصحاب الأخدود إذ هم على نارهم مشرفون قعود، يشهدون تحريق الذين يكرهونهم على ترك دينهم الحق الذي امنوا به، بمعنى: ضع هذا في ذاكرتك أيها الملتقي أيا كنت، وتصور مبلغ بشاعة هذا المشهد الإجرامي الشنيع)[٢].

﴿وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ﴾ أي حضور، قال قتادة: يعني بذلك الكفار، كانوا الكفار يعرضون الكفر على المؤمنين، فمن أبا القوه في النار وفي ذلك وصفهم بالقسوة ثم بالجد في ذلك، وقيل: «على» بمعنى «مع»، أي وهم: مع ما يفعلون بالمؤمنين شهود[٣].

(﴿شُهُودٞ﴾: جمع «شاهد» وهو الحاضر وقت الحدث، المحس بما يجري فيه، وفي هذا البيان متابعة لتصوير شناعة ما قاموا به، وتصوير فضاعته، للتنبيه على حالتهم النفسية البالغة غاية الإجرام واللؤم والخسة والكلاحة الجهنمية، إنهم يشاهدون من أمروا بتحريقهم مستمتعين، لمجرد أنهم امنوا بربهم)[٤].

(والغرض: تخويف كفار قريش، فقد كانوا يعذبون من اسلم من قومهم، ليرجعوا عن الإسلام، فذكر الله تعالى قصة «أصحاب الأخدود» وعيدا للكفار، وتسلية للمؤمنين المعذبين)[٥].

---

(١) ينظر: فتح القدير: ٥١٤/٥، الكشاف: ٢٣٨/٤، تفسير النسفي: ٤٢١/٣.

(٢) معارج التفكر ودقائق التدبر: ٣٦٩/٢.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٥٨/١٩، جامع البيان: ١٥١/٣٠، زاد المسير: في علم التفسير، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٢م ٢٣٦/٧.

(٤) معارج التفكر ودقائق التدبر: ٣٧٠/٢.

(٥) صفوة التفاسير: ٤٧٩/٣.

وقوله: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ (يقول تعالى ذكره: وما وجد هؤلاء الكفار الذين فتنوا المؤمنين على المؤمنين والمؤمنات بالنار من شيء ولا فعلوا بهم ما فعلوا بسبب إلا من اجل أنهم امنوا بالله، لان المعنى إلا إيمانهم بالله، فلذلك حسن في موضعه يؤمنوا، إذ كان الإيمان لهم صفة)[١].

وقيل: (﴿إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ﴾؛ لان التعذيب إنما كان واقعا على الإيمان في المستقبل، ولو كفروا في المستقبل لم يعذبوا على ما مضى، فكأنه قال: إلا أن يدعوا إيمانهم)[٢].

وقوله: ﴿بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾: (العزيز الحميد اسمان وصفان من أسماء الله الحسنى.

«العزيز»: أي: ذو العزة الكاملة، والعزة: هي القدرة على الغلبة، فالعزيز: هو القوي المقتدر الغالب لكل شيء، «الحميد»: هو الموصوف بجمع الصفات العلية السنية، التي يحمده بها الأولون، والآخرون، ويحمده بها كل حامد، وهو بهذا المعنى على صيغة «فعيل» بمعنى مفعول، أي: محمود كثير.

والحميد أيضا هو الذي يحمده عباده على ما يكون منهم من أمور تستحق الحمد والثناء، وهو بهذا المعنى «فعيل» بمعنى فاعل، أي: كثير الحمد لعباده المستحقين للحمد، والحمد الله لعباده يستلزم مكافأتهم على صالحات أعمالهم لأنه جل جلاله جواد كريم، وفي ذكر هذين الاسمين «العزيز الحميد» من أسماء الله الحسنى، عقب الكلام على أصحاب الأخدود وجريمتهم الكبرى، تنبيه على أمرين:

الأمر الأول: انه بعزته ينتقم من المجرمين الجبارين، فينزل بهم ما يقتضيه عدله، جل جلاله وعظم سلطانه.

---

(١) جامع البيان: ٣٠/١٥٠-١٥١، ينظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت ٤٦٨هـ)، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٥هـ: ٢/١١٩٠، صفوة التفاسير: ٣/٤٨٠، الكشاف: ٤/٢٣٨، تفسير النسفي: ٣/٤٢١.

(٢) البحر المحيط: ١٠/٤٤٥.

الأمر الثاني: انه بمقتضى كونه محمودا كثيرا بصفاته السنية، وحامدا كثيرا لمستحقي الحمد من عباده، سيثيب عباده المؤمنين الصادقين الصابرين على ما نالهم من اضطهاد وأذى وضر بأيدي الطغاة البغاة الجبارين، من اجل ثباتهم على دينهم ابتغاء مرضاة ربهم، وسيجعل ثوابهم جزيلا وعظيما)[١].

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ (أي: له وحده ملك السماوات والأرض، لا يشاركه احد في سلطانه على كل شيء، فكل شيء سوى الله عز وجل هو داخل في السماوات والأرض، وهو جل جلاله رب كل شيء بالخلق الدائم المتتابع، والخالق الرب هو المالك وهو الملك، وهو المتصرف بكل ما يملك، لا منازع له، ولا ند له، وهو القادر على أن يهلك ويعذب بعدله من يشاء، ويثيب بفضله العظيم من يشاء)[٢].

(فكل من فيهما تحق عليه عبادته والخشوع له تقريرا، لأن ما نقموا منهم هو الحق الذي لا ينقمه إلا مبطل منهمك في الغي وأن الناقمين أهل لانتقام الله منهم بعذاب لا يعدله عذاب)[٣].

(وأجراء الصفات الثلاث على اسم الجلالة وهي: «العزيز»، «الحميد»، «الذي له ملك السماوات والأرض»؛ لزيادة تقرير أن ما نقموه منهم ليس من شأنه أن ينقم بل هو حقيقي بأن يمدحوها به لأنهم امنوا برب حقيق بأن يؤمن به لأجل صفاته التي تقتضي عبادته ونبذ ما عداه لأنه ينصر مواليه ويثيبهم ولأنه يملكهم، وما عداه ضعيف العزة لا يضر ولا ينفع ولا يملك منهم شيئا فيقوي التعجب منهم بهذا)[٤]

---

(١) معارج التفكر ودقائق التدبر: ٣٧١/٢.

(٢) معارج التفكر ودقائق التدبر: ٣٧٢/٢، ينظر: جامع البيان: ١٥١/٣٠، الجامع لأحكام القرآن: ٢٥٨/١٩.

(٣) الكشاف: ٢٣٩/٤، ينظر: تفسير النسفي: ٤٢١/٣، البحر المحيط: ٤٤٥/١٠، صفوة التفاسير: ٤٨٠/٣، فتح القدير: ٥١٤/٥-٥١٥.

(٤) التحرير والتنوير: ٢١٨/٣٠-٢١٩.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ (أي: والله فوق كل شيء حاضر، عليم بكل شيء، خبير بكل شيء، إذن فما يفعله عباده الطغاة الجبارون، بعباده المؤمنين الصادقين، معلوم مشهود له، لا يعزب عن عمله مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض)[١].

(والله على فعل هؤلاء الكفار من أصحاب الأخدود بالمؤمنين الذين فتنوهم شاهد، وعلى كثير ذلك من أفعالهم وأفعال جميع خلقه، وهو مجازيهم جزاءهم)[٢].

(وجملة ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ تذييل بوعيد للذين اتخذوا الأخدود وبوعد الذين عذبوا في جنب الله، ووعيد لأمثال أولئك من كفار قريش وغيرهم من كل من تصدوا لأذى المؤمنين ووعد المسلمين الذين عذبهم المشركون مثل بلال وعمار وصهيب وسمية)[٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ (أي: حرقوا قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن[٤] أبزى)[٥].

ففي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ﴾ عام في كل من ابتلى المؤمنين والمؤمنات بتعذيب أو أذى، وان لهم عذابين: عذابا لكفرهم، وعذابا لفتنتهم، قال الزمخشري: (يجوز أن

(١) معارج التفكر ودقائق التدبر: ٣٧٢/٢.

(٢) جامع البيان: ١٥١/٣٠، ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٥٨/١٩، صفوة التفاسير: ٤٨٠/٣، البحر المحيط: ٤٤٥/١٠، تفسير النسفي: ٤٢١/٣، الكشاف: ٢٣٩/٤، فتح القدير: ٥١٥/٥، الفخر الرازي: ١١٣/١١، زاد المسير: ٢٣٧/٧.

(٣) التحرير والتنوير: ٢١٩/٣٠.

(٤) عبد الرحمن بن أبزى، مولى خزاعة. ينظر: الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (ت ٢٣٠هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨م: ٤٦٢/٥.

(٥) تفسير القرآن العظيم: ٤٣٢/٦، ينظر: جامع البيان: ١٥١/٣٠.

يريد بالذين فتنوا أصحاب الأخدود خاصة، وبالذين امنوا المطروحين في الأخدود، ومعنى فتنوهم: عذبوهم بالنار واحرقوهم)[١].

والعرب تقول: فتن فلان الدرهم والدينار، إذا أدخله الكور[٢]، لينظر جودته ودينار مفتنون ويسمي الصائغ الفتان، وكذلك الشيطان، وورق فتين، أي فضة محترقة ويقال للحرة فتين، أي كأنها أحرقت حجارتها بالنار، وذلك لسوادها)[٣] ومنه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾[٤].

﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ أي لم يرجعوا عن كفرهم ولم يقلعوا عما فعلوا بالمؤمنين والمؤمنات من اجل إيمانهم بالله، ولم يندموا على ما أسلفوا[٥].

(يدل على أنهم لو تأبوا لخرجوا عن هذا الوعيد وذلك يدل على القطع بأن الله تعالى يقبل التوبة، ويدل على أن القاتل عمدا مقبولة خلاف ما يروى عن ابن عباس رضي الله عنه)[٦].

(وأولئك المحرقون لم ينقل لنا أن أحدا منهم تاب، بل الظاهر أنهم لم يلعنوا إلا وهم قد ماتوا على الكفر، وقال ابن عطية: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ يقوي أن الآيات في قريش،

---

(١) البحر المحيط: ٤٤٥/١٠، ينظر: الفخر الرازي: ١١٣/١١، الكشاف: ٢٣٩/٤، تفسير النسفي: ٤٢٢/٣.

(٢) وكور الحداد الذي فيه الجمر وهو مبني من طين، لسان العرب، محمد بن مكرم بن على أبو الفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ: ١٣٦/٧.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٥٨/١٩، فتح القدير: ٥١٥/٥.

(٤) سورة الذاريات، الآية ١٣.

(٥) ينظر: الوجيز في التفسير الكتاب العزيز للواحدي: ١١٩٠/٢، تفسير القرآن العظيم: ٤٣٢/٦، جامع البيان: ١٥١/٣٠، تفسير النسفي: ٤١٢/٣، صفوة التفاسير: ٤٨٠/٣، فتح القدير: ٥١٥/٥.

(٦) الفخر الرازي: ١١٣/١١-١١٤.

لأن هذا اللفظ في قريش أحكم منه أولئك الذين قد علموا أنهم ماتوا على كفرهم، وأما قريش فكان فيهم وقت نزول الآية من تاب وامن)[١].

﴿فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة ﴿وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ في الدنيا[٢].

(وقيل: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب زائد على عذاب كفرهم بما أحرقوا المؤمنين وقيل: لهم عذاب، وعذاب جهنم الحريق والحريق: اسم من أسماء جهنم، كالسعير والنار دركات وأنواع ولها أسماء وكأنهم يعذبون بالزمهرير في جهنم، ثم يعذبون بعذاب الحريق، فالأول عذاب ببردها، والثاني عذاب بحرها)[٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي الذين أقروا بتوحيد الله، وهم هؤلاء القوم الذين حرقهم أصحاب الأخدود وغيرهم من سائر أهل التوحيد، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: وعملوا بطاعة الله، وأتمروا لأمره وانتهوا عما نهاهم عنه[٤].

﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ أي لهم في الآخرة عند الله بساتين وحدائق زاهرة، وتجري من تحتها الأنهار من ماء غير آسن، ومن لبن لم يتغير طعمه، ومن خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى[٥].

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ أي (هذا الذي هو لهؤلاء المؤمنين في الآخرة، هو الظفر الكبير بما طلبوا والتمسوا بإيمانهم بالله في الدنيا، وعملهم بما أمرهم الله به فيها ورضيه منهم)[٦].

---

(١) البحر المحيط: ٤٤٥/١٠.

(٢) جامع البيان: ١٥١/١١-١٥٢، ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٥٨/١٩، زاد المسير: ٢٣٧/٧، الكشاف: ٢٣٩/٤، الفخر الرازي: ١١٤/١١، تفسير النسفي: ٤٢٢/٣، فتح القدير: ٥١٥/٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٢٥٨/١٩، ينظر: الفخر الرازي: ١١٤/١١، فتح القدير: ٥١٥/٥، الكشاف: ٢٣٩/٤، تفسير النسفي: ٤٢٢/٣، زاد المسير: ٢٣٧/٧.

(٤) ينظر: جامع البيان: ١٥٢/١١، الجامع لأحكام القرآن: ٢٥٨/١٩.

(٥) ينظر: المصدرين السابقين، وصفوة التفاسير: ٤٨٠/٣

(٦) جامع البيان: ١٥٢/١١.

(هذا الفوز الكبير أعده الله عز وجل للذين آمنوا وعملوا الصالحات، فجمعوا بين الإيمان القلبي الصادق الصحيح، وبين العمل الصالح، وقد دلت النصوص على أن العمل الصالح هو المظهر السلوكي السوي للإيمان المستقر في القلب)[١].

(١) معارج التفكر ودقائق التدبر: ٢/٣٨٠.

المطلب الثاني: أصحاب الأخدود في السنة النبوية

* عن صهيب، أن رسول الله ﷺ قال: (كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر، قال للملك: إني قد كبرت، فابعث إلي غلاما أعلمه السحر، فبعث إليه غلاما يعلمه، فكان في طريقه، إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه، فأعجبه فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر، فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرا، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي، وكان الغلام يبرئ الأكمه[١] والأبرص[٢]، ويداوي الناس من سائر الأدواء[٣]، فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما هاهنا لك أجمع، إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحدا إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل

---

(١) الأبرص وقيل الأحسب الذي أبيضت جلدته من داء ففسدت شعرته فصار أحمر وأبيض يكون ذلك في الناس والإبل والبهق، المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت ٤٥٨هـ)، خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٦م: ٤٨٥/١.

(٢) الكمه مصدر كمه يكمه كمها، وهي الظلمة تطمس على البصر والرجل أكمه، وقال قوم الأكمه الذي يولد أعمى، ينظر: جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت٣٢١هـ)، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م: ٩٨٤/٢.

(٣) الأدواء جمع الداء، وهو المرض والعيب ظاهرا أو باطنا، حتى يقال داء الشح أشد، تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية: ٢٣١/١.

وتفعل، فقال: إني لا أشفي أحدا، إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له ارجع عن دينك، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور[١]، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهما من كنانتي[٢]، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهما من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله، رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فأتي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك، فخدت وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها، أو قيل له: اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة

(١) قرقور هو السفينة العظيمة، ينظر: لسان العرب: ٥/٩٠.

(٢) كنانة [مفرد] ج كنانات وكنائن جعبة صغيرة من جلد أو نحوه؛ لوضع السهام، ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، ط١، ٢٠٠٨م: ٣/١٩٦٤.

ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنك على الحق)[١].

* عن صهيب قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر همس، والهمس في بعض قولهم تحرك شفتيه كأنه يتكلم، فقيل له: إنك يا رسول الله، إذا صليت العصر همست. قال: إن نبيا من الأنبياء كان أعجب بأمته، فقال: من يقوم لهؤلاء؟ فأوحى الله إليه أن خيّرهم بين أن أنتقم منهم، وبين أن أسلط عليهم عدوهم، فاختار النقمة، فسلط عليهم الموت، فمات منهم في يوم سبعون ألفا، قال: وكان إذا حدث بهذا الحديث حدث بهذا الحديث الآخر، قال: كان ملك من الملوك، وكان لذلك الملك كاهن يكهن له، فقال الكاهن: انظروا لي غلاما فهما، أو قال فطنا لقنا، فأعلمه علمي هذا، فإني أخاف أن أموت فينقطع منكم هذا العلم، ولا يكون فيكم من يعلمه، قال: فنظروا له على ما وصف، فأمره أن يحضر ذلك الكاهن، وأن يختلف إليه، فجعل يختلف إليه، وكان على طريق الغلام راهب في صومعة، قال معمر: أحسب أن أصحاب الصوامع كانوا يومئذ مسلمين، قال: فجعل الغلام يسأل ذلك الراهب كلما مر به، فلم يزل به حتى أخبره، فقال: إنما أعبد الله، قال: فجعل الغلام يمكث عند الراهب ويبطئ على الكاهن، فأرسل الكاهن إلى أهل الغلام: إنه لا يكاد يحضرني، فأخبر الغلام الراهب بذلك، فقال له الراهب: إذا قال لك الكاهن أين كنت؟ فقل عند أهلي، وإذا قال لك أهلك أين كنت، فأخبرهم أنك كنت عند الكاهن، قال: فبينما الغلام على ذلك إذ مر بجماعة من الناس كثير قد حبسهم دابة، فقال بعضهم: إن تلك الدابة أسدا، قال: فأخذ الغلام حجرا، قال: اللهم إن كان ما يقول الراهب حقا فأسألك أن أقتلها، قال: ثم رمي فقتل الدابة، فقال الناس: من قتلها؟ قالوا: الغلام، ففزع الناس، وقالوا: لقد علم هذا الغلام علما لم يعلمه أحد، قال: فسمع به أعمى، فقال له: إن أنت رددت بصري فلك كذا وكذا، قال له: لا أريد منك هذا، ولكن أرأيت إن رجع إليك بصرك أتؤمن بالذي يرده عليك؟ قال: نعم،

(١) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ «صحيح مسلم»، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ٢٢٩٩/٤، برقم (٣٠٠٥)، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام.

قال: فدعا الله فرد عليه بصره، فآمن الأعمى، فبلغ الملك أمرهم، فبعث إليهم فأتي بهم، فقال: لأقتلن كل واحد منكم قتلة لا أقتل بها صاحبه، فأمر بالراهب والرجل الذي كان أعمى فوضع المنشار على مفرق أحدهما فقتله، وقتل الآخر بقتلة أخرى، ثم أمر بالغلام، فقال: انطلقوا به إلى جبل كذا وكذا فألقوه من رأسه، فانطلقوا به إلى ذلك الجبل فلما انتهوا به إلى ذلك المكان الذي أرادوا أن يلقوه منه جعلوا يتهافتون من ذلك الجبل ويتردون حتى لم يبق منهم إلا الغلام، قال: ثم رجع، فأمر به الملك أن ينطلقوا به إلى البحر فيلقونه فيه، فانطلق به إلى البحر، فغرّق الله الذين كانوا معه وأنجاه، فقال الغلام للملك: إنك لا تقتلني حتى تصلبني وترميني، وتقول إذا رميتني: بسم الله رب هذا الغلام، قال: فأمر به فصلب ثم رماه، فقال: بسم الله رب هذا الغلام، قال: فوضع الغلام يده على صدغه حين رمي ثم مات، فقال الناس: لقد علم هذا الغلام علما ما علمه أحد، فإنا نؤمن برب هذا الغلام، قال: فقيل للملك أجزعت أن خالفك ثلاثة؟ فهذا العالم كلهم قد خالفوك، قال: فخد أخدودا ثم ألقى فيها الحطب والنار، ثم جمع الناس فقال: من رجع عن دينه تركناه، ومن لم يرجع ألقيناه في هذه النار، فجعل يلقيهم في تلك الأخدود، قال: يقول الله تعالى ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾ حتى بلغ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، قال: فأما الغلام فإنه دفن، فيذكر أنه أخرج في زمن عمر بن الخطاب وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب(١).

(١) الجامع الصحيح سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ٢٩٦/٥، باب ومن سورة البروج.

المبحث الثاني:
التضحية بالنفس دروس وعبر

المطلب الأول: تعريف التضحية لغة واصطلاحا

التضحية لغة: التبرع بالشيء دون مقابل(١).

هذا ولم أجد تعريف التضحية اصطلاحا ولهذا سوف اذكر تعريف الجهاد لأن التضحية جزء من الجهاد، أي أن التضحية أخص من الجهاد، فكل من ضحى فقد جاهد وليس كل من جاهد فقد ضحى، والدليل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: (تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا جهاد في سبيله وتصديق كلمته بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة)(٢).

فإن رسول الله ﷺ ذكر الخارج للجهاد بنية خالصة والعائد منه بأنه إما أن يكزن ضحى بنفسه فنال الشهادة فأجره الجنة، وإما أن يعود إلى أهله بأجر وثواب الجهاد والغنيمة(٣)، فتبين من الحديث أن الجهاد اعم من التضحية.

فعندما نلقي نظرة على تعاريف الجهاد الشرعية عند فقهاء المذاهب الإسلامية نجد أنها تختلف في اللفظ والشكل، وتتفق في المضمون والمعنى وهو قتال الكفار.

---

(١) ينظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، دار الدعوة: ٥٣٥/١ مادة «ضحى».

(٢) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، «صحيح البخاري»: ٨٥/٤، برقم (٣١٢٣)، باب قول النبي ﷺ أحلت لكم الغنائم.

(٣) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ: ٨/٦.

❖ **عرفه الحنفية:**

- جهاد الكفار: وهو دعوتهم إلى الدين الحق وقتالهم إن لم يقبلوا(١).
- وعرفوه أيضا: بذل الوسع في القتال في سبيل الله مباشرة أو معاونة بمال، أو رأي أو تكثير سواد(٢).

❖ **عرفه المالكية:**

- قتال مسلم كافرا غير ذي عهد لإعلاء كلمة الله، أو حضوره له، أو دخول أرضه(٣).
- في سبيل الله المبالغة في إتعاب الأنفس في ذات الله وإعلاء كلمته التي جعلها الله طريقا إلى الجنة وسبيلا إليها(٤).

❖ **عرفه الشافعية:**

- قتال الكفار لنصرة الإسلام(٥).

---

(١) شرح فتح القدير: كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي (ت٦٨١هـ)، دار الفكر، بيروت: ٤٣٥/٥، ينظر: درر الحكام شرح غرر الأحكام، محمد بن فرامرز بن علي الشهير بملا، أو منلا أو المولى، خسرو (ت ٨٨٥هـ)، دار إحياء الكتب العربية: ٢٨١/١.

(٢) رد المحتار على الدر المختار، ابن عابدين محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي (ت ١٢٥٢هـ)، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤١٢هـ: ١٢١/٤.

(٣) مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي المغربي، المعروف بالحطاب الرُّعيني المالكي(ت ٩٥٤هـ)، دار الفكر، ط٣، ١٤١٢هـ: ٣٤٧/٣.

(٤) المقدمات الممهدات، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (ت ٥٢٠هـ)، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٨هـ: ٣٤١/١.

(٥) فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب المعروف بحاشية الجمل «منهج الطلاب اختصره زكريا الأنصاري من منهاج الطالبين للنووي ثم شرحه في شرح منهج الطلاب»، سليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهري، المعروف بالجمل (ت ١٢٠٤هـ)، دار الفكر: ١٧٩/٥.

❖ عرفه الحنابلة:

- قتال الكفار خاصة بخلاف المسلمين من البغاة وقطاع الطريق[١].
- وعرفه ابن تيمية أيضا: حقيقته الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان[٢].

المطلب الثاني: وقفات مع القصة دروس وعبر

وبعد هذه الرحلة المباركة مع قصة أصحاب الأخدود، التي أوردها القرآن بألفاظ قويه وربطها بهذا الكون المفتوح الذي يشهد على وحدانية الله تعالى وذكرتها السنة النبوية في أعظم وأرقى مثال للدعوة إلى الله عز وجل، (فإن هذه القصة حقيقة يجب أن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله في كل ارض وفي كل جيل فالقرآن بإيرادها في هذا الأسلوب، مع مقدمتها والتعقيبات عليها، والتقريرات والتوجيهات المصاحبة لها... كان يخط بها خطوطا عميقة في تصور طبيعة الدعوة إلى الله، ودور البشر فيها، واحتمالاتها المتوقعة في مجالها الواسع – وهو أوسع من رقعة الأرض، وابعد مدى من الحياة الدنيا – وكان يرسم للمؤمنين معالم الطريق، ويعد نفوسهم لتلقى أي من هذه الاحتمالات التي يجري بها القدر المرسوم، وفق الحكمة المكنونة في غيب الله المستور)[٣].

ولهذا سوف نقف على بعض من مفاصل هذه القصة لنأخذ منها الدروس والعبر في طريقنا الدعوي الطويل المحفوف بالمخاطر والعقبات.

---

(١) كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي، تحقيق هلال مصيلحي مصطفى هلال، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ: ٣٢/٣.

(٢) مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ: ١٩١/١٠.

(٣) معالم في الطريق، سيد قطب، دار الشروق، ط١: ١٨٨.

الوقفة الأولى: الدعوة والداعية:

* الدعوة لا تكون بالعمر الذي يعيشه المسلم فيها: ففي حديث مسلم يقول الراهب للغلام (أنت اليوم أفضل مني)، وفي هذا القول يدل على أن الغلام أصبح أفضل من الراهب مع العلم أن الراهب أسبق من الغلام في عالم الإيمان، وقد قطع سنوات طويلة في السير إلى الله تعالى وهذا يدل على أن الفضل والمنزلة في الدعوة لا تكون بالعمر الذي يعيشه المسلم فيها، بل بمقدار الإيمان والتقوى والإخلاص والتجرد(١).

* **مراحل الدعوة:** مرت دعوة الغلام بمرحلتين، الأولى مرحلة الدعوة السرية، وكان الارتباط فيها فرديا بين الراهب والغلام، والثانية مرحلة الدعوة العلنية، وكان الارتباط فيها عاما بين الغلام والناس.

ففي المرحلة الأولى كان هناك سرية في التنظيم الدعوي، فنرى هذا في وصية الراهب للغلام بأن لا يدل عليه، فهنا حرص الراهب على عدم كشف الدعوة، وهذه السرية لابد منها في الدعوات في أي زمان ومكان خاصة في بداية مرحلة الدعوة من حيث التنظيم والقيادة، وهذه السرية بارزة في كثير من حياة السابقين وفي سيرة الرسول ﷺ وفي حياة أصحابه والى اليوم(٢)، وأيضا أوصانا الرسول ﷺ بأن نقضي حوائجنا بالكتمان. عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود»(٣). قال الألباني(٤): صحيح.

أما المرحلة الثانية فكانت الدعوة علنية، لان الغلام انتقل إلى مرحلة العمل العلني والتحرك العلني، حيث كان يداوي الناس من سائر الأدواء، وبهذا أصبح معروفا

(١) ينظر: قصص السابقين: ٧٧٣.

(٢) ينظر: المصدر السابق: ٧٧٣-٧٧٧.

(٣) الروض الداني «المعجم الصغير»، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق محمد شكور محمود الحاج أمرير، المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت، ط١، ١٩٨٥م: ٢٩٢/٢، برقم (١١٨٦).

(٤) صحيح الجامع الصغير وزياداته، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت: ٢٢٣/١.

عندهم، وأصبحت دعوته علنية فهنا لا نرى وصية له بعدم إخبار الملك عندما شفى جليسه من العمى بأذن الله، وهي أن الغلام لم يقل للجليس لا تدل علي لأنه أصبح في مرحلة علنية جماهيرية(١).

ومثال على مراحل الدعوة من سيرة النبي محمد ﷺ، فقد مرت الدعوة بمرحلتين وهي المرحلة السرية وكانت لمدة ثلاث سنوات، كان يدعو فيها ألصق الناس به من أهل بيته، وأصدقائه، وكل من توسم فيه الخير ممن يعرفهم ويعرفونه، ثم جاءت المرحلة الثانية المرحلة العلنية وفيها جهر بالدعوة(٢).

* **زهد الداعية:** على الداعية أن يتجرد لدينه وربه ودعوته، وأن لا يسأل الناس شيئا ولا يأخذ منهم شيئا، وان لا يطلب منهم على دعوته أجرا، وأن لا يكلفهم مالا ولا متاعا، وإذا قدموا له من ذلك شيئا، فيحاول رده إليهم، لتبقى صلته بهم خالصة من أي شائبة مالية أو مادية.

فالزهد عما في أيدي الناس سبب لمحبة الناس له، وقبولهم لدعوته، وهذا ما فعله الغلام الصالح فقد رفض اخذ الهدايا الكثيرة عندما قدمت له من قبل الجليس الملك الأعمى الذي رد إليه بصره بأذن الله(٣).

فعلينا نحن أمة محمد أن نقتدي بزهد الأنبياء والمرسلين والصالحين الدعاة لان الكل هدفهم واحد وهو الدعوة إلى الله وتوحيد العبادة له فهذا هو الهدف الأساسي(٤).

ونحن الأمة التي أرسل فيها خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ الذي عرف بزهده في الدنيا، وأرشدنا والدعاة الذين يحتاجون إلى تقوية صلتهم بالناس إلى الزهد فعن

(١) ينظر: قصص السابقين: ٧٧٤-٧٧٧.

(٢) ينظر: الرحيق المختوم في سيرة الرسول ﷺ، صفي الرحمن المباركفوري، المكتبة العمرية، دمشق، ط١، ٢٠٠٧م: ٨٣-٧٧.

(٣) ينظر: قصص السابقين: ٧٧٥.

(٤) ينظر: الدعوة إلى الله في سورة ابراهيم الخليل، محمد بن سيدي بن الحبيب، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط٢: ٦٣.

سهل بن سعد الساعدي[١]، قال: أتى النبي ﷺ رجل فقال: يا رسول الله دلني على عمل إذا أنا عملته أحبني الله وأحبني الناس؟ فقال رسول الله ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس» قال الألباني: صحيح[٢]، وكان النبي ﷺ يدعو الناس إلى الإسلام وتوحيد الله تعالى بدون أجر أو جزاء دنيوي، إنما كانت دعوته خالصة لوجه الله وأراد بها أن يهتدي الناس أجمعين إلى طريق الحق، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[٣].

* **صلة الداعية بالله وحسن الظن به:** وهذا ما نراه في قصة الغلام الصالح فعندما أرسله الملك مع طائفة من الجنود ليلقوه من الجبل أو عندما أرادوا أن يغرقوه في البحر فلم يعمل شيئا سوى انه دعا الله تعالى فقال: الهم اكفنيهم بما شئت، لقد كان الغلام في ذلك الوقت عاجزا عن إنقاذ نفسه، ولا يملك من الأسباب المادية شيئا للخلاص، فترك الأمر لربه أن يكفيه شرهم بأي سبب يختاره سبحانه وبأي كيفية يريدها عز وجل، فنرى أن الله قد أنجاه واهلك الجنود فكفاه شرهم وأرجعه سالما لإكمال دعوته[٤].

فعلى هذا يجب أن يكون الداعية على صلة دائمة بالله تعالى فيكون مؤمنا بالله، متوكلا عليه، مفوضا أمره إليه، طالبا منه وحده الخلاص والفرج، ويجب أن يكون محسن الظن بالله فعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال النبي ﷺ: (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني

(١) سهل بن سعد الساعدي أبو العباس الأنصاري المدني، قال لنا الحكم بن نافع عن شعيب عن الزهري عن سهل أنه رأى النبي ﷺ وهو ابن خمس عشرة، وقال لنا أبو نعيم مات سنة ثمان وثمانين، ينظر: التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق محمد عبد المعيد خان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن: ٩٧/٤-٩٨.

(٢) سنن ابن ماجة، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٣هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي: ١٣٧٣/٢، برقم (٤١٠٢).

(٣) سورة الفرقان، الآية ٥٧.

(٤) ينظر: قصص السابقين: ٧٨٠-٧٨١.

في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)[١].

* **شجاعة الداعية في التحدي:** وهذا ما نتلمسه في قصة الغلام عندما أراد الملك أن يقتله فلم يردعه هذا الفعل بل زاده شجاعة وقوة في تحدي الملك، فعندما لم يستطع قتله رجع إلى الملك، أي رجع إلى الخطر المباشر، لان اختفاءه يعني هزيمة الدعوة، فلهذا وجد مصلحته في مصلحة الدعوة، وحياته في حياتها، وطالما أن من مصلحة الدعوة ركوب الخطر فليكن، وحتى لو كان في مصلحة الدعوة موته ونهاية حياته فأنه سوف يفعل، فلا تفسر عودته على إنها تهور بل هي قمة الشجاعة.

يجب على الداعية أن يكون شجاعا وجريئا فيما أمره الله أن يعمل ولا يضعف في أول محنه تصبيه وعلى الداعية أن يفرق في مواقف المواجهة مع الأعداء بين ثلاث كلمات: الجبن والتهور والشجاعة.

فالجبن: هو عدم الاستعداد للبذل والتضحية عند الحاجة لذلك.

والتهور: هو التضحية بلا ضرورة ولا حاجة.

والشجاعة: هي التضحية الضرورية النافعة[٢].

* **حسن تصرف الداعية وتفكيره بالعواقب:** فإن الغلام لما أراد أن يضحي بروحه جعل لهذه التضحية غاية وهي أن يؤمن الناس بالله تعالى، فأختار عند قتله أمورا من خلالها فكر ما سيحصل بعد موته، فهو أمر الملك بأن يجمع الناس عند مكان قتله، وان يقتل بسهم من كنانته وان يقول الملك عند قتله: باسم الله رب الغلام، وكان هدفه من هذا كله أن يظهر للناس مقدار العجز والضعف الذي بلغه الملك، وكيف انه عجز عن قتله إلا بهذه الطريقة فهنا تبطل أكاذيبه بادعائه انه ربهم ويتأكد للناس بان هناك رب واحد وهو رب العالمين وهو رب الغلام فقد كان الغلام ذكيا ألمعيا، حين سنحت له فرصة عظيمة في تبليغ رسالة ربه، اغتنمها وحقق معان عظيمة في مفهوم النصر

(١) صحيح البخاري: ١٢١/٩، برقم (٧٤٠٥). باب قول الله تعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾.

(٢) ينظر: قصص السابقين: ٧٨١.

التمكين، ففي قتله رسم لنفسه طريقا لنيل الشهادة في سبيل الله[١]، فيجب على الداعية أن يحسن التصرف فيما يريد عمله ليكسب في نهاية المطاف وان كلفه ذلك حياته أو ماله أو وقته أو منصبه أو جاهه.

* **تحلي الداعية بالصبر والثبات والتقوى:** وهذا ما نتلمسه في قصة الغلام عندما عذب صاحباه (الراهب والجليس) ثم قتلهما أمامه فتحلى بالصبر وثبت على الحق واستمر على هذا الطريق إلى أن دفع حياته ثمنا لهذا الطريق[٢].

فعلى الداعية أن يصبر على ما يلقاه من أذى في نفسه أو لأصحابه، لان الدعوة إلى الله طريق غير سهل فأن للإسلام أعداء كثر فعليه أن يصبر ويحتسب لله ويثبت على طريق الحق.

* **نهاية الداعية لا الدعوة:** وضرب الغلام لنا مثل في الدعوة والشجاعة الداعية فقد استشهد الغلام ومات الداعية لكن الدعوة لم تمت لان بعد موت الغلام صار الناس يهتفون، آمنا برب الغلام[٣].

فعلى الداعية أن يؤمن بأن الموت حق على كل إنسان، وأن أجل الإنسان مكتوب وهو في بطن أمه فعن زيد بن وهب[٤]، قال عبد الله: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق، قال: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع، فيسبق عليه كتابه، فيعمل بعمل أهل النار،

---

(١) ينظر: فقه النصر والتمكين، علي محمد الصلابي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م: ٥٨٥.

(٢) ينظر: قصص السابقين: ٧٨٠.

(٣) ينظر: المصدر السابق: ٧٨٥.

(٤) زيد بن وهب أبو سليمان الهمداني ثم الجهني يروى انه قال رحلت إلى رسول الله ﷺ فقبض وأنا في الطريق، سمع علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وحذيفة وأبا ذر وجريرا، قال ابن سعد توفي في ولاية الحجاج بعد الجماجم، ينظر: الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد: ١/٢٥٨-٢٥٩.

ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة)[١].

فعلى الداعية أن يؤمن بهذه الحقيقة ويسعى إلى نشر الإسلام وتوحيد عبادة الله فما خلقنا إلا لنعبده، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢].

ومن هذا ينطلق الداعية المسلم فيصبر بنفسه وبما يملك ابتغاء مرضاه الله قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[٣].

الوقفة الثانية: العقبات التي تواجه الدعاة، وتأسيهم بمن سبقهم في تحمل الشدائد:

* **سماع الداعية نصائح أكثر من مصدر متعارض:** فهنا نرى حسن تلقي الغلام واختياره لطريق النجاة، وهو طريق الحق، فلهذا أصبح غلاما صالحا لا ساحرا[٤].

إن الداعية لا يكون بمعزل عن الناس عند الدعوة بل يجب أن يعيش مع الناس ويعرف طبعهم وتصرفاتهم، وبعد هذا التعايش تسدى إلى الداعية كثير من النصائح منها جيدة ومفيدة وفيها تطبيق لشريعة الله، ومنها مضرة ومندسة، وهي نصائح في بعض الأحيان تنفر الداعية وتخرجه عن طريق الحق تدريجيا، فلهذا على الداعية أن ينتبه ويحسن التلقي والاختيار ويستوعب ما ينصح به ويقبله إذا كان فيه خير للإسلام والمسلمين، ويتركه إذا كان فيه فتنة أو شرا عليه أو على المسلمين وهنا نرى ما فعله الغلام عندما كان يتلقى النصائح من مصدرين متناقضين، فكانت المعلومات التي يتلقها متعارضة فهو يتعلم من الراهب الدين والحق الصحيح، ويتعلم من الساحر السحر والشعوذة والظلال.

* **تعرض الداعية إلى مشاكل في حياته اليومية:** وهذا ما نراه في قصة الغلام عندما كان يذهب إلى الراهب قبل وصوله إلى الساحر، كان يتأخر على موعده مع الساحر، فيضربه الساحر، فأصبح يذهب إلى الراهب في طريق عودته إلى البيت، فيضربه أهله

---

(١) صحيح البخاري: ١١١/٤، برقم (٣٢٠٨) باب ذكر الملائكة.

(٢) سورة الذاريات، الآية ٥٦.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٠٧.

(٤) ينظر: قصص السابقين: ٧٧٠.

لأنه تأخر فشكا هذا إلى شيخه وموجهه ومربيه (الراهب) ليحل هذه المشكلة بعدما عجز عن حلها، حيث كانت الشكوى تهدف حل المشكلة التي تعيق استمراره وسيره، ولم تكن بهدف تقديم المعاذير للتراجع عن هذا الطريق وبعد سماع الراهب للمشكلة، وجد لها حلا وهو أن أباح له الكذب على الساحر الكافر فيقول للساحر: حبسني أهلي لينجوا من الضرب، ويقول لأهله: حبسني الساحر لينجو من ضربهم، مع العلم أن الكذب الذي أباحه الراهب لغلام إنما كان لتجاوز الفتنة، وليس إباحة للكذب، فهو محرم ومنهي عنه، ولكنه مأذون فيه للضرورة [١].

إن الداعية يتعرض لمشاكل في حياته اليومية لما نجد من محاربة الدعوة والدعاة، وأيضا لاعتراض الناس عليه في الوقت الذي يقضيه في تعلم دين الحق، فعلى الداعية أن يحل هذه المشاكل بأقل الخسائر، وأيضا عليه أن يطلب التوجيه من مربيه وقادته في حل المشاكل إذا ألم الأمر به.

* **يمر الداعية بالابتلاء والمصاعب الكثيرة:** وهذا ما نراه في قصة أصحاب الأخدود فقد مر الغلام بكثير من الشدائد والصعوبات، فقد عذب عذابا شديدا ليرجع عن دينه، وقتل أمامه شيخه الراهب وجليس الملك المؤمنين ومع كل هذا بقي صابرا ثابتا على الحق[٢].

والمؤمنون الذين ألقوا في الأخدود صبروا على الشدائد في سبيل العقيدة وكان من أصحاب الأخدود امرأة تحمل رضيعا لها فلما أرادوا أن يلقوهما خافت على رضيعها فترددت، فيكلمها ابنها الرضيع فيقول لها: (يا أمه اصبري فإنك على الحق)[٣]، فألقت بنفسها ووليدها الرضيع في أخدود النار في سبيل العقيدة والإيمان بالله.

إن الابتلاء والصعوبات سنة الدعوات، يمر الداعية بكثير منها في دعوته، فعليه الصبر والتأسي بمن سبقه من المؤمنين في تحمل الشدائد والعذاب في سبيل عقيدته.

---

(١) ينظر: المصدر السابق: ٧٧١-٧٧٢.

(٢) ينظر: قصص السابقين: ٧٧٨-٧٧٩، المستفاد من قصص القرآن، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م: ٥٨٣.

(٣) سبق تخريجه.

* **إغراء الداعية بالمال والمنصب والجاه:** ونتلمس هذا في قصة الغلام عندما كان الملك يعتبره قائدا عمليا للدعوة ولهذا كان حريصا على ردته وإغوائه وعدم قتله، فأخذ في البداية إغراءه بأن يعد له مستقبلا زاهرا وحياة ترفهٍ ويقربه منه إذا تخلى عن الدعوة وقال بأنه يبرئ الأكمه والأبرص ويفعل كل هذا بما علمه من السحر، فرفض الغلام هذا العرض لما رآه من تزوير الحقائق وتفسير الحق بالباطل لإخفاء الحقيقة عن الناس، فلما رأى الملك ثبات الغلام أخذ بأساليب أخرى وهي التخويف من الموت، وقام بقتل الراهب والجليس أمامه، لعله يضعف أو يثأر فيرجع عن دينه(١).

فعلى الدعاة إذا مروا بالتخويف أو بالإغراء بالمال وبالجاه وبالمنصب أن يصبروا ويثبتوا على الحق لأن في ردة الداعية قتل الدعوة لما يحصل من فتنة الناس بسببه.

الوقفة الثالثة: ظهور الكرامة على الأولياء والصالحين:

فنرى أن هذه الكرامة ظهرت على يد الغلام الصالح أكثر من مرة وفي أوقات مختلفة ومنها:

* **قتل الغلام الدابة:** فقد ظهرت في منطقة الغلام دابة عظيمة حبست الناس، فقام الغلام فدعا الله فقال: إن كان أمر الراهب أحب إليك أن تقتلها، فرماها بحجر فقتلها، فبهذا ظهرت عليه كرامة من الله، وهو انه قتل الدابة العظيمة بحجر.

* **معالجة الناس من الأدواء:** ظهرت على الغلام كرامة أخرى وهي انه يبرئ الأكمه والأبرص، فكان يقوم بهذا بدون تعلم منه لأسس العلاج ومبادئ الطب، فهذه كرامة من الله سبحانه له، وهذا من كرامة الأولياء، التي يكرمهم الله بها.

* **عندما أراد الملك قتله:** ظهرت على الغلام كرامه أخرى وهي عندما أرسل الملك جنوده ليقتلوا الغلام بإلقائه من الجبل، فكان الغلام وقتها عاجزا عن إنقاذ نفسه فلم يعمل شيء سوى انه دعا ربه وقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فاستجاب له الله فرجف الجبل فسقط الجنود وماتوا جميعا ورجع الغلام سالما غانما، وحصل هذا عندما

(١) ينظر: قصص السابقين: ٧٧٨.

أراد الملك قتله مره ثانيه فأرسله مع جنوده ليغرقوه في البحر، فلم يعمل شيء سوى انه دعا بنفس الدعاء، فانكفأت بهم السفينة فغرق الجنود وعاد الغلام سالما(١).

فمن هذا نعرف أن الكرامة موجودة وتظهر على يد الأولياء والصالحين.

فالكرامة هي (أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة ولا هو مقدمة لها تظهر على يد عبد ظاهر الصلاح مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح، فقولنا: أمر خارق للعادة: أخرج ما كان على وفق العادة من أعمال، وغير مقرون بدعوى النبوة: أخرج معجزات الأنبياء، ولا هو مقدمة لها: أخرج الإرهاص وهو كل خارق تقَدم النبوة، ويظهر على يد عبد ظاهر الصلاح: أخرج ما يجري على أيدي السحرة والكهان فهو سحر وشعبذة)(٢).

ويجري الله جل شأنه الكرامة على يد من شاء من الصالحين إكراما لهم، أو إنقاذا من موقف رأفة بهم ورحمة، وهي غير المعجزة، فالمعجزة خارقة للعادة يظهرها الله جل شأنه على يد نبي من أنبيائه، أو رسول من رسله بيانا لرسالته، وتأييدا له في دعوته، وإقامة للحجة على قومه، لإثبات أنه رسول من عند الله، وأنه نبي من أنبياء الله، هذه تسمى معجزة تجري على يد رسول أو نبي من أنبياء الله، أما الكرامة فتظهر على يد صالح من الصالحين غير الأنبياء، وكرامات الأولياء كثيرة منها ما ثبت في حق بعض الصالحين من الأمم الماضية (٣)، ومن ذلك ما أخبر الله به عن مريم عليها السلام، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾(٤).

الوقفة الرابعة: ذل الكفرة والطغاة:

(١) ينظر: قصص السابقين: ٧٧٢-٧٨٠.

(٢) كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢١هـ: ٢٠٢/١.

(٣) ينظر: فتاوى ورسائل سماحة الشيخ عبد الرزاق عفيفي، قسم العقيدة، عبد الرزاق عفيفي (ت ١٤١٥هـ): ٣٧٧/١.

(٤) سورة آل عمران، الآية ٣٧.

* **تحول الملك إلى قزم صغير أمام الغلام:** فنرى أن الملك أصبح عاجزاً أن يقتل الغلام، فأصبح ذليلا على يدي الغلام، واقفا أمامه بعجزه وذله وصغره، لأنه يريد الخلاص من هذا المأزق والقضاء على الغلام بأي طريقة كانت حتى لا ينتشر دينه بين الناس، فأصبح الغلام هو الذي يأمر، والملك يتلقى الأمر، فيقول له الغلام: إذا أردت قتلي فافعل ما آمرك به، والملك يقول بلهفة: ما هو؟ فهذا يدل على ذل وعجز الملك في هذا الموقف.

* **الغلام يأمر ويوجه والملك يتلقى منه:** نرى أن الغلام أصبح هو الآمر، فهو يدل الملك على طريقة قتله ويوجهه إلى كل حركة إذا أراد قتله، ويأمره بالخطوات التفصيلية.

* **استجابة الملك لأوامر الغلام:** أصبح الملك يستجيب للغلام استجابة الضعيف المضطر، لأنه وجد نفسه أمام ثلاثة خيارات، وهي إما أن يترك الغلام يدعو كما شاء، وفي هذا سيؤمن الناس بالله، وإما أن يستمر في محاولات قتله، وسيستمر في تأكيد عجزه أمام الناس، وإما أن يقتله بالكيفية التي يأمره بها الغلام، ليتخلص منه، فقد اختار الخيار الثالث مكرها مضطرا، فنفذ ما أمره الغلام، فمات الغلام الصالح(١). فسبحان الله كيف يمكر الله بأعدائه، ويذل الطواغيت.

(١) ينظر: قصص السابقين: ٧٨٢-٧٨٤.

الوقفة الخامسة: تحمل المشاق الدنيوية للانتصار والفوز بالآخرة:

* **جليس الملك:** تحمل جليس الملك تعذيب الملك، وثبت على دينه ليحصل على الجزاء الأخروي، فنرى أنه ضحى مرتين، الأولى بمكانته عند الملك مع ما في ذلك من جاه ومكانه ومنصب، والثانية عندما ضحى بنفسه وتخلى عن حياته بمقابل ثباته على عقيدته.

فهنا نرى هذا الإنسان ضحى في الدنيا لينتصر في الآخرة، ويفوز بجنه عرضها السموات والأرض(١).

* **الراهب:** تحمل الراهب التعذيب الشديد وضحى بنفسه مقابل أن تنتصر دعوته للتوحيد وينتصر في الآخرة، وهو الانتصار الحقيقي، وهو يوم لا يكون فيه خوف ولا حزن على المؤمنين(٢) قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ٣٢﴾(٣).

* **عدم هروب الغلام:** فعندما أراد الملك أن يقتل الغلام أرسله مع طائفة من الجنود ليلقوه من أعلى الجبل، فرجف بهم فسقطوا وماتوا، وفي المرة الثانية أرسله ليغرقوه في البحر، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، ففي المرتين يعود فيها، فهنا لم يهرب الغلام من الملك، لأنه يعرف أن اختفاءه هزيمة له ولدعوته، فلهذا كان ينظر إلى ما ينتظره في الآخرة من جزاء، وفوز بالجنة وهو الفوز العظيم(٤).

---

(١) ينظر: فقه النصر والتمكين: ٣٤، قصص السابقين: ٧٧٧-٧٧٩.

(٢) ينظر: المصدرين السابقين.

(٣) سورة فصلت، الآية ٣٠.

(٤) ينظر: قصص السابقين: ٧٨٠-٧٨١.

* **تضحية المؤمنين:** ضحى الذين امنوا برب الغلام بأنفسهم، فهذا يدل على صفاء عقيدتهم ووضوح المنهج، وسلامة الطريق، وفهم لحقيقة الانتصار، فهم ضحوا بالرخيص وهو العمر الفاني في الدنيا، لينتصروا ويفوزوا فوزا جماعيا مباركا بالشهادة والجنة، وغادروا هذه الدنيا غير آسفين عليها(١).

قال سيد قطب «رحمه الله» في حديثه عن هذه القصة: في حساب الأرض يبدو أن الطغيان قد انتصر على الإيمان وأن هذا الإيمان الذي بلغ تلك الذروة العالية، في نفوس الفئة الخيرة الكريمة الثابتة المستعلية، لم يكن له وزن ولا حساب في المعركة التي دارت بين الإيمان والطغيان! ففي حساب الأرض تبدوا هذه الخاتمة أسيفة أليمة!!.

ولكن القرآن يعلم المؤمنين شيئا آخر، ويكشف لهم عن حقيقة أخرى. إن الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام ومن متاع وحرمان، ليست هي القيمة الكبرى في الميزان، وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة، والنصر ليس مقصورا على الغلبة الظاهرة، فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثير، إن الناس جميعا يموتون، وتختلف الأسباب، ولكن الناس لا ينتصرون –جميعا– هذا الانتصار، ولا يرتفعون هذا الارتفاع، ولا يتحررون هذا التحرر، ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلى هذه الآفاق، إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده لتشارك الناس في الموت، وتنفرد –دون كثير من الناس– في المجد، المجد في الملأ الأعلى، وفي دنيا الناس أيضا، إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال، لقد كان في استطاعة المؤمنين أن ينحوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم، ولكن كم يخسرون أنفسهم؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر، كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح، بعد سيطرتهم على الأجساد ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾(٢) حقيقة ينبغي أن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله، في كل ارض، وفي كل جيل، إن

(١) ينظر: فقه النصر والتمكين: ٣٥، قصص السابقين: ٨٧٥-٨٧٦.

(٢) سورة البروج، الآية ٨.

المعركة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة، وليست شيئا آخر على الإطلاق، وان خصومهم لا ينقموا منهم إلا الإيمان، ولا يسخطون منهم إلا العقيدة(١).

الوقفة السادسة: الإنسان مهما اقترف من قتل البشر وتعذيبهم في الدنيا فإن الله يغفرها بالتوبة النصوح.

فقد وردت آية في آخر قصة أصحاب الأخدود فيها دعوة لهم بالتوبة والتحذير لمن أصر على الكفر قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾(٢) ففي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ (جاء العطف بحرف العطف «ثم» دلالة على أن الله عز وجل منح السابقين فرصة إمهال متراخية ليتوبوا، على الرغم من فعلتهم الشنيعة، وجريمتهم الكبرى، لاحتمال أن يكونوا قد ارتكبوا جرائمهم في حالة ثورة غضبية طار بها صوابهم، وفقدوا بها رشدهم، فإذا هدأت نفوسهم بعد ذلك ندموا وتأبوا)(٣).

قال الحسن البصري: (انظر إلى هذا الكرم والجودة قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة)(٤).

ففي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ (يدل على أنهم لو تأبوا لخرجوا عن هذا الوعيد وذلك يدل على القطع بأن الله تعالى يقبل التوبة، ويدل على أن توبة القاتل عمدا مقبولة خلافا لما يروى عن ابن عباس ﷺ)(٥) ويدل على هذا من السنة (عن أبي سعيد

(١) ينظر: معالم في الطريق: ١٩٠-١٩١.

(٢) سورة البروج، الآية ١٠.

(٣) معارج التفكر ودقائق التدبر: ٢/٣٧٦-٣٧٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٦/٣٤٢.

(٥) الفخر الرازي: ١١/١١٣-١١٤.

الخدري[١] ﷺعن النبي ﷺ قال: (كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا، ثم خرج يسأل، فأتى راهبا فسأله فقال له: هل من توبة؟ قال: لا، فقتله، فجعل يسأل، فقال له رجل: ائت قرية كذا وكذا، فأدركه الموت، فناء بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إلى هذه أن تقربي، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجد إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له)[٢] وكذلك يفعل الله في أمثالهم الذين سيأتون مستقبلا، فسنة الله في عباده واحدة، وفي هذا إطماع من الله لهم بأن يتوبوا قبل أن ينزل بهم العذاب[٣].

وفي هذا الكلام دعوة لكل عاص وقاتل بأن يتوب إلى الله قبل أن يفوت الأوان وتنتقل روحه إلى الديان.

(١) سعد بن مالك بن سنان أبو سعيد الخدري الأنصاري المدني سمع النبي ﷺ، قال الذهلي قال يحيى بن بكير مات سنة ٧٤، ينظر: الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد: ٣٠٢/١-٣٠٣.

(٢) صحيح مسلم: ١٧٢/٤، برقم (٣٤٧٠)، باب حديث الغار.

(٣) معارج التفكر ودقائق التدبر: ٣٧٧/٢.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، واشكره على منن ترجع الألسن بعدها حسرات، واصلي واسلم على من بعثه الله رحمة مهداة، فأنار لنا طريق الحياة والممات.

وبعد هذه الرحلة المباركة مع قصة أصحاب الأخدود والتضحية بالنفس من خلالها توصلت إلى النتائج التالية:

أولا: ذُكرَت قصة أصحاب الأخدود مرة واحدة في كتاب الله وهي بإحدى عشرة آية في سورة البروج.

ثانيا: وردت روايات وآثار كثيرة عن قصة أصحاب الأخدود إلا أني اخترت أصحها وهي رواية الإمام مسلم في صحيحه.

ثالثا: إن مفهوم الجهاد اعم من التضحية فكل تضحية هي جهاد وليس العكس.

رابعا: إن التضحية بالنفس أعلى درجات التضحية والجهاد وارفعها منزلة عند الله تعالى.

رابعا: إن التضحية ليست فقط في سوح الوغى والقتال، فقد تكون في المال والوقت والجاه والمنصب.

خامسا: إن منزلة التضحية تختلف من وقت وآخر، فتكون أعلى عند شدة حاجة المسلمين لها.

سادسا: توقفت عند بعض من مفاصل القصة واستخلصت منها بعض الدروس والعبر التي تنفعنا في المجال الدعوي.

وفي النهاية انصح الباحثين في كتاب الله عز وجل أن يأخذوا بعضا من القصص القرآني للدراسة ومنها قصة مؤمن آل ياسين الواردة في سورة (يس)، ووصية لقمان لابنه، وقصة إبراهيم مع ابنه إسماعيل في ضوء سورة الصافات، وغيرها من القصص القرآني.

أسأل الله سبحانه أن يهيئ لأمة الإسلام أمر رشد، يعز فيه دعاة الخير ويذل فيه دعاة الباطل.

المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم

١. الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.
٢. البحر المحيط في التفسير، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٥م.
٣. تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
٤. تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم، أبو المحاسن المفضل ابن محمد بن مسعر التنوخي المعري (ت ٤٤٢هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م.
٥. التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن.
٦. التحرير والتنوير «المعروف بتفسير ابن عاشور»، محمد الطاهر بن محمد ابن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م.
٧. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٨م.
٨. تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (ت ١٣٧١هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١، ١٩٤٦م.

٩. تفسير النسفي «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (ت ٧١٠هـ)، تحقيق: مجدي منصور، المكتبة التوفيقية، القاهرة.
١٠. التفسير الواضح، الحجازي، محمد محمود، دار الجيل الجديد، بيروت، ط١٠، ١٤١٣ هـ.
١١. الجامع الصحيح سنن الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٢. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت.
١٣. جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت ٣٢١هـ)، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
١٤. درر الحكام شرح غرر الأحكام، محمد بن فرامرز بن علي الشهير بملا أو منلا أو المولى خسرو (ت ٨٨٥هـ)، دار إحياء الكتب العربية.
١٥. الدعوة إلى الله في سورة إبراهيم الخليل، محمد بن سيدي بن الحبيب، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط٢.
١٦. الرحيق المختوم في سيرة الرسول ﷺ، صفي الرحمن المباركفوري، المكتبة العمرية، دمشق، ط١، ٢٠٠٧م.
١٧. رد المحتار على الدر المختار، ابن عابدين محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي (ت ١٢٥٢هـ)، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤١٢هـ.
١٨. الروض الداني (المعجم الصغير)، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت ٣٦٠هـ)، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

١٩. زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٢م.
٢٠. سنن ابن ماجة، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.
٢١. سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٩٨٥م.
٢٢. شرح فتح القدير، كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي (ت٦٨١هـ)، دار الفكر، بيروت.
٢٣. صحيح الجامع الصغير وزياداته، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت.
٢٤. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
٢٥. الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (ت ٢٣٠هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.
٢٦. فتاوى ورسائل سماحة الشيخ عبد الرزاق عفيفي، قسم العقيدة، عبد الرزاق عفيفي (ت ١٤١٥هـ).
٢٧. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٢٨. فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ)، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٤م.
٢٩. فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب المعروف بحاشية الجمل «منهج الطلاب اختصره زكريا الأنصاري من منهاج الطالبين للنووي ثم شرحه في شرح منهج الطلاب»، سليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهري، المعروف بالجمل (ت ١٢٠٤هـ) دار الفكر.
٣٠. الفخر الرازي، محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر (ت ٦٠٤هـ)، دار الفكر، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
٣١. فقه النصر والتمكين، علي محمد الصلابي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
٣٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١١، ١٩٨٥م.
٣٣. كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢١هـ.
٣٤. كشاف القناع عن متن الإقناع، منصور بن يونس بن إدريس البهوتي تحقيق: هلال مصيلحي مصطفى هلال، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ.
٣٥. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت ٥٣٨هـ)، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٦م.
٣٦. اللباب في علل البناء والإعراب، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي محب الدين (ت ٦١٦هـ)، تحقيق: عبد الإله النبهان، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٥م.
٣٧. لسان العرب، محمد بن مكرم بن على أبو الفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

٣٨. مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ) تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ.

٣٩. المخصص، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت ٤٥٨هـ)، خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

٤٠. المستفاد من قصص القرآن، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

٤١. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٢. مسند أبي داود الطيالسي، أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصري (ت ٢٠٤هـ)، تحقيق: محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، ط١، ١٩٩٩م.

٤٣. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال ابن أسد الشيباني (ت ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠١ م.

٤٤. معالم في الطريق، سيد قطب، دار الشروق، ط١.

٤٥. مع قصص السابقين في القرآن، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط٥، ١٤٢٨هـ.

٤٦. معارج التفكر ودقائق التدبر، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م.

٤٧. معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، ط١، ٢٠٠٨م.

٤٨. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ.
٤٩. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، دار الدعوة.
٥٠. المقدمات الممهدات، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (ت ٥٢٠هـ)، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٨هـ.
٥١. مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي المغربي، المعروف بالحطاب الرُّعيني المالكي (ت ٩٥٤هـ)، دار الفكر، ط٣، ١٤١٢هـ.
٥٢. نزهة الألباء في طبقات الأدباء، عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين الأنباري (ت ٥٧٧هـ)، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الأردن، ط٣، ١٩٨٥م.
٥٣. الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد، أحمد بن محمد بن الحسين ابن الحسن، أبو نصر البخاري الكلاباذي (ت ٣٩٨هـ)، تحقيق: عبد الله الليثي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.
٥٤. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت ٤٦٨هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٥هـ.